التعليل التاريخي عند الشناقطة

محمد الأمين ولد محمد عبد الله(*)

"تاريخ المعرفة بأسره سواء كنا بصدد العلوم الطبيعية أو الإنسانية يدل بوضوح على أن كل جمع للوقائع لا قيمة له ما لم يكن البحث سائرا على هدى النظرية".

إفريريتشارد : الإناسة والمجتمعية.

لماذا السؤال، أو بالأحرى التساؤل عن التعليل؟ وعلام يقوم؟ بل ماذا نعنى بالتعليل التاريخي على وجه التحديد؟ وهل التعليل سمة ذات حجم فى ذاك التاريخ بالقدر الذى يدعم وجاهة تصدرها هذا العنوان؟ وهل لأشكال "التدوين التاريخي" من تأثير فى التاريخ وفى التعليل؟

وجود تعليل تاريخي يستدعى بالضرورة وجود مؤرخين وكتابة تاريخ، وهذا ما يشكك فيه بعض الباحثين(1)، إن لم يكن إطلاقا ففى مراحل تاريخية؛ إذ المتروك أو المهمل أحيانا من التاريخ يكون أكثر، وربما أهم من "المدون"؛ وإذ المدون لا يزيد عن ذكر أخبار أو رصد أحداث فى إطار أحوال شبيه تتاليها بتتالى نشرات الأخبار المسموعة اليوم، مع فارق الإطار، واختلاف وسائل السمع وأدوات الاتصال، ومجال الاهتمام، وحيثية الاختيار.

ومهما اختلفت أشكال المدونات الإخبارية عن المعهود، وضؤلت وبعدت عن المأمول، فإنها لا يمكن أن تخلو من رؤية ولا من تعليل. ومن شأن الرؤية أن تكون بادية القسمات فى شكل الكتابة ونوعية التناول ومفصلة الأحداث، لكن التعليل قد لا يحتل موقعا مماثلا من الإبراز؛ إذ قد يسكت عنه أو يلمح إليه أو يصرح به أحيانا، ونادرا ما يقع التصريح.

---

*باحث موريتاني.

ويخضع ذلك لعدة أمور هى فى مجملها عائدة إلى شخصية المؤرخ بكامل مكوناتها، وإلى نفسيته بمجمل أبعادها، هذا إن لم نقل إن لكل رؤية تعليلها المستبطن داخلها، بغض النظر عن نوعيته من حيث السطحية والعمق، والشمول والقصور. والحديث هنا عن المدونات الإخبارية ما قبل الدولة الوطنية.

١ – السمات العامة للكتابة التاريخية :

ننبه بدءا إلى أن كاتبى الأحداث التاريخية يعمهم الانتماء لفئة الزوايا، وأنه لم يكن هناك أمير رعى أو دعا إلى كتابة تاريخ إمارته أو تدوين أخبار عشيرته، وكل الإيماءات والتصريحات التى نقرأها فى مقدمات المدونات الإخبارية تعود إلى أشخاص من فئة الزوايا، أتى تدوينها بطلب منهم(٢)، وهو مما يترتب عليه وجود رؤية هذه المجموعة، وبشكل طاغ أحيانا، فيما يكتب من تاريخ أو يدون من أخبار. وعندئذ فإنه يجب علينا أن نتحسس ثلاثة مستويات فى الرؤية التاريخية لهؤلاء: المستوى الأول : ما يتميز به الكاتب عن زملائه من مواقف وآراء وإهمال وانتفاء، والمستوى الثانى : ما يتفق فيه معهم من آراء ومواقف تعبر عن نظرة فئته للفئات الأخرى، والمستوى الثالث: يمثل موقف المجتمع، وهو المستوى الذى يتقاطع فيه مع المستويين الآخرين.

ومن بين السمات العامة "للكتابة التاريخية" ما يأتى :

١ –١ – الحولية :

تطغى السمة الحولية على المدونات الإخبارية الشنقيطية، وهى سمة أصيلة فى التاريخ العربى (ترجع إلى الهيثم بن عدى، ت ٢٠٦ هـ / ٨٢٢م)،

دونت بها بعض أمهاته (مثل تاريخ الطبرى، ت ٣١٠ هـ/٩٢٣م)، وإليه يرجع انتشار السمة الحولية. وقد تكرست بفعل احتذاء تلك الأمهات وتقليدها، وإن على مستوى الشكل. ويتبع الأسلوب الحولى فى تدوين الأخبار اعتماد حلقة زمنية هى السنة لجعلها إطارا مغلقا على مجموعة أحداث منتقاة يتم حصرها داخله. ويرجع انتقاء تلك الأحداث إلى الكاتب وحده، وغالبا ما يعطى أهمية وأولوية للوفيات والأحداث السياسية والحربية قبل غيرها. ويعود انتهاج الأسلوب الحولى إلى رؤية خاصة للزمان والأحداث والمكان، هى المسئولة عن التوزيع غير المتكافئ للأخبار بينها؛ إذ يتخذ الحدث الأول مرجعا، ولا يجد الأخير سببا للذكر إلا من خلال الثانى. هذه الرؤية ترفع الزمان درجة فى الأهمية فوق غيره، وتساوى بين أجزائه – السنوات – مما ينزع أى إمكان لعدم تساوى "الحقب"؛ إذ المساواة حاصلة بين أجزاء الزمن، وما يدون داخله من أخبار ليس لها من ميزة إلا أنها حدثت فى السنة ذاتها، قد يهول من حادثة (وفاة، فتنة، زلزلة ...) أو يهون من حجمها وأهميتها، وقد تذكر لها سوابق أو لواحق مماثلة، لكن مرجعيتها تبقى زمنية، عندئذ يتضح التعارض فى التوجه ومسار التطور وإمكان التغير بين هذه الرؤية وغيرها من الرؤى.

١ – ٢ – الاختصار :

هى سمة ملازمة للتسجيل الإخبارى الحولى الشنقيطى. وعلى الرغم من أن الاختصار القائم على الانتقاء أمر يطبع المؤلفات الشنقيطية فى مجملها[٣]، فإنه فى التأليف التاريخي يتخذ صفة أكثر تركيزا وشمولا، لاستناده إلى مبررات ودواع إضافية إلى تلك التى تفسر الظاهرة فى المجالات الثقافية الأخرى[٤]. وهو لا يتخذ شكل الاختصار المعتاد، بل هو اختصار من نوع خاص، ساعدت عليه الطبيعة الخاصة للتاريخ عندهم[٥]، وتحول فى بعض الأحيان إلى إشارات وأسماء وأحداث شبيهة بالألغاز والأحاجى[٦]؛ إذ نجد

عاما مثلا يوصف بأنه عام كذا (عام اندوسر ١١٧١هـ، عام أطويل ١١٧٢هـ، عام ولول ١١٧٥هـ...) لا أكثر ولا أقل، فى الوقت الذى يكون للعام نفسه وصف آخر فى منطقة أخرى، أو لدى قبيلة أخرى نادرا ما يشير إليه المؤلف(٧). ومن ثم فإن الاختصار يتخذ تدرجات مختلفة بالنسبة للأحداث والأماكن، ويقتصر فى الزمن على ما دون الألف بالتقويم الهجرى(٨).

١ – ٣ – المحلية :

لا نكاد نجد استثناء يخفف من انسحاب المحلية بوصفها سمة عامة على التاريخ الشنقيطى، والاستثناءان الوحيدان اللذان نجدهما –حسب علمنا– أولهما عند صالح بن عبد الوهاب (ت١٢٧١هـ/١٨٥٤م) فى كتابه : "نبذة من وفيات الأعيان وتاريخ أعلام هذا الزمان" الذى ختمه سنة ١٢٥٥هـ، وخصص بابيه: الحادى عشر والثانى عشر لتاريخ المنطقة، وثانيهما عند ابن أنبوجة (ت١٣٠٠هـ / ١٨٨٢م) فى كتابه:"منح الرب الغفور فى تواريخ الدهور"(٩) الذى جزّأه جزأين، خصص ثانيهما لتاريخ المنطقة، وعنوانه : " تاريخ التكرور من بلاد أقصى المغرب" غير أنهما فيما تناولاه من تاريخ لم يتعرضا لتاريخ المنطقة قبل الألف بالتقويم الهجرى، ولم يذكرا تاريخ غيرها مع تاريخها حين الحديث عنه، ومن ثم فإن الفصل واضح على مستوى التصور بين تاريخها وبقية تاريخ المنطقة الإسلامية(١٠).

ولعل فى انعدام التأثير السياسى فيما بين المنطقة وبقية المناطق الإسلامية فى القرون الأخيرة ما يبرر إهمال الحديث عنها لدى المؤرخين فى الأقاليم الإسلامية كافة، خصوصا تلك المجاورة. والشئ نفسه هو دافع بعض هؤلاء وأضرابهم لتناسى أو إهمال الرقعة الإسلامية حين تناول تاريخهم، فضلا عن بُعد المسافة(١١).

١-٤- النظم :

لاحتلال النظم مكانة مميزة فى الثقافة الشنقيطية، واتخاذه وسيلة من وسائل التبسيط والتحفيظ؛ فإن البعض لجأ إليه أولا فى تدوين حوادث فردية كموت عالم(١٢)، على أنه سرعان ما اعتمد إلى جانب النثر أسلوبا لتدوين الأحداث(١٣). ولئن كان التدوين النثرى يوغل فى الاختصار، إن النظم أكثر إيغالا وتعقيدا وإشارية منه، وإن اختلفت تلك الخصائص من ناظم لآخر. هذا إضافة إلى محاولات غير موفقة من الفقهاء "المؤرخين" لإسقاط المصطلحات القارة والمسيطرة فى أذهانهم على تناول الأحداث التاريخية ووصفها بدون مراعاة اختلاف السياقات، وهذا ما يزيد القارئ إرباكا، يقول والد بن خالنا (ت ١٢١٢ هـ/١٧٩٨م) فى منظومته :

موت أمير المؤمنين عمـــر سليل شنظور رئيس مغفر
بعام عشق باله من عـــام فكم قضى فيه من الأعلام
فكم أمير وشديد وســديـد وكم شرير وشهير وشهيد
كالشيخ أعمر إمام المغرب جميعه من عجم وعرب(١٤)

فهل كان أعمر (ت ١٢٤٥هـ/١٨٢٩م) هذا أمير المؤمنين حقا وإمام المغرب؟ ومن هم الأمراء والأشرار والشهداء وأهل السداد؟ ويقول:

ووقعة البطحاء مهما تسل فى السبت رابع الربيع الأول(١٥)

فالتاريخ الذى يحدد به وقعة البطحاء هو ١١٤٥هـ، وهو تاريخ وقعة مشهورة بين بنى بوفايدة ومنصور وطلحة فى بطحاء ولاته، لكنه يكتفى بالبطحاء بدون إضافتها إلى شىء، فهل لأن تلك البطحاء أعرف من غيرها

من البطاح؟ وعموما فإن أسلوبه أكثر استرسالا وسلاسة من بابكر بن أحجاب (ت ١٣٢٢هـ/١٩٠٤م)، حيث يقول:

والملك بعدهم لآل أعمر ملك عضوض وبه عيش مرى[١٦]

يتحدث في البيت عن تحول الإمارة من فرع إلى فرع آخر من بنى أحمد بن دمان (أبناء المختار بن أعمر إلى أبناء المختار بن الشرقى، حيث عين أعمر بن المختار أميراً سنة ١٢١٥هـ)، ولكن هل كان هناك ملك حتى يكون عضوضا؟ وما العيش المرى؟ ويقول:

وعام عال تالى جرب الإبل لمن له حظ بهذى السبل

والعام بعده بحيمرونـــــا إن كنتم للقهرى تدرنـــا

وشركج فكرونه مهـــزوم مات به سنادها المعلوم[١٧]

قد لا نحتاج إلى التدليل والتمثيل على عدم صلاحية النظم لسرد الوقائع أصلا، وعدم سلاسته هنا واختصاره واقتصار وصفه على الترميز وتداخل أسلوبه. فهل نتوقع من مثل هذا تفسير خبر أو تعليل حدث؟ وهل يمكن أن تتسم "الكتابة التاريخية" بهذه السمات بدون أن تترك أثرها على التعليل داخلها؟ بل إنه من شأن هذه السمات أن تدفع إلى التساؤل عما إذا كان للتعليل من وجود أصلا.

٢ – أساس التعليل وهدفه :

٢-١- الأساس :

ترجع تعليلات المؤرخين إلى العقيدة الأشعرية بالدرجة الأولى، بوصفها أساساً بارزاً تقوم عليه بشكل أو بآخر كل عملية تعليلية ضمنية أو صريحة،

مهما كانت محدودة، وتتأطر داخله مباشرة، أو تتوسط به للاتكاء على أى أساس آخر، صوفى، أو فقهى، أو واقعى.

يرد العقد الأشعرى أحداث الوجود، فى أى موقع (من المكان) وضمن أية لحظة من الدهر، إلى فاعل واحد هو الله، وهو الفاعل لجميع الأحداث على وجه الحقيقة، ومن ثم فما للإنسان من فعل فى تلك الأحداث إلا أن "يكسبها"، لا أن "يخلقها"، ولذا فإن "الأشعرية تجحد كثيرا من الضروريات مثل ثبوت الأعراض وتأثير الأشياء بعضها فى بعض، ووجود الأسباب الضرورية للمسببات"(١٨)، لكن هذا الجحود يأتى متأخرا؛ إذ ينطلق "الأشاعرة" عموما "من السببية لإثبات مسبب الأسباب، ثم يلغون السببية بعد ذلك"(١٩).

وإذا كان المعتزلة قد نجحوا "فى انتزاع إجماع جمهور فقهاء المتأخرين على رأيهم فى أن أفعاله تعالى فى الشرائع معللة كما يقرر ابن الحاجب والإيجى والفخر الرازى والمرتضى"(٢٠)، فإن الزركشى (ت٧٤٩هـ/ ١٣٩٢م) يؤكد "ضرورة تقدير سبب لكل مسبب ويوجب ذكره"(٢١)؛ يقول محمد البدالى (ت ١١٦٦هـ/١٧٥٢م) متحدثا عن نهاية شربة*: "وتفرقت الطلبة فى البلاد بعد فتحهم لطلب المعيشة، وغلب المغافرة لهم بقضاء الله وقدره، ولكن كل شىء له سبب"(٢٢)، فالفتح هو بقضاء الله وقدره، لكن وفق أسباب مرتبة، مثلما أن الفرج بيد الله يسوقه على يد من يشاء، كما يقول جدو إبن الطالب الصغير البرتلى (كان حيا ١٢٣٦هـ/١٨٢١م): "وفى العام السادس والأربعين بعد الألف جاء شنان لعروسى وأخوه التونسى وأبوهما إبراهيم لولاته ومكثوا فيها أحد عشر عاما وأحد عشر شهراً وأحد عشر يوما، حتى فرج الله تعالى عنهم بموت شنان وفرار أصحابه، وأتى الله بالفرج على يد أولاد يونس"(٢٣).

كما أن اعتماد المذهب المالكى على المأثور بالدرجة الأولى، والتزام الطرق الصوفية فى أغلبها بالجنيدية التى تبتعد عن الحلول والإشراق، جعلهما يحتلان جزءا من الأساس التعليلى، سواء بشكل بارز أو مسكن[٢٤]، غير أن التعليل -كما سنرى- لم يكن بالكثافة والحجم الذى يدفع به إلى صنع مقولاته، فهو لا يستخدم مقولات ولا يسعى لصنعها، ولم تكن له قوالب نظرية خارج إطار الأشعرية.

٢-٢- الهدف:

يتحدد الهدف صريحا وواضحا منذ الأسطر الأولى فى أغلب المؤلفات الإخبارية متمثلا فى العبرة والموعظة والفائدة[٢٥]، كما عند جدو "ليعتبر كل ذى بصيرة، ويعلم أن الدنيا دار فناء وغرور، وفى التفكير فيه ومعانى الذكر فيه تبصرة وموعظة للغافلين وإفادة للسامعين، بدليل قوله تعالى: ﴿وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾"[٢٦]، أو بإضافة مستند إلى حكم شرعى فقهى، ورغبة نفسية، كما عند محمد المصطفى (ت١٣١٩هـ/١٩٠١م): "الحمد لله (...) جاعل من أنباء الماضين عبرة لمن أراد الاعتبار، وتبصرة لمن أراد الاستبصار (...)، وبعد فإنه لما كان لنقل الكوائن فوائد مفيدة ولها مزايا كثيرة، منها أنها تذكر بما كان عليه أحوال المتقدمين، ومنها أن نعلم أوقات وجوب العمل على أولاد المسلمين، ومنها أن فى ذلك تسلية للنفس وارتداعا عن الانهماك فى الدنيا مع المغرورين"[٢٧].

وغالبا ما يستدلون بالآيات ﴿فاعتبروا يا أولى الأبصار﴾ و﴿إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار﴾، وتوارد القصص القرآنى الذى لم تكن له من غاية غير الاعتبار. "وفى بيان الاعتبار تدل الأشياء نفسها، ولا تدل من خلال استقراء العلل والأسباب"[٢٨]. على أن احتكار الدلالة على الأشياء بدون

استقراء العلل والأسباب موقف ظاهرى يعتمد على التعجب، وسبق لابن عربى (ت٦٣٨ هـ/١٢٤٧م) أن شنع عليه وساوى عقول آتيه بعقول الصبيان، يقول : "ليس عندهم من الاعتبار إلا التعجب، فلا فرق بين عقولهم وعقول الصبيان الصغار، فهؤلاء ما عبروا قط من تلك الصورة الظاهرة كما أمرهم الله"(٢٩). ويعلق على الآيتين قائلا: "أى جوزوا مما رأيتموه من الصور بأبصاركم إلى ما تعطيه تلك الصور من المعانى والأرواح فى بواطنكم فتدركوها ببصائركم"(٣٠).

هكذا يذهب ابن عربى بالاعتبار ناحية التصوف، جاعلا منه اعتباراً فى الباطن واعتبارا فى الظاهر، مقتصرا على التعجب؛ ليؤكد أن الأول وحده هو القادر على ربط الصلة بين الأبصار والبصائر وتحقيق المطلوب الشرعى. غير أن ابن رشد (ت٥٩٥ هـ/١١٩٨م) يذهب مذهبا آخر يساهى فيه بين الاعتبار والبرهان من خلال وسائط؛ يقول : "إذا تقرر أن الشرع أوجب النظر بالعقل فى الموجودات واعتبارها، وكان الاعتبار ليس شيئا أكثر من استنباط المجهول من المعلوم واستخراجه منه، وهذا هو القياس ... فواجب أن نجعل نظرنا فى الموجودات بالقياس العقلى ... وأتم أنواع النظر بأتم أنواع القياس، وهو المسمى برهانا"(٣١). والمعنى نفسه يورده سيدى عبد الله ولد الحاج إبراهيم (ت١٢٣٣ هـ/١٨٢٤م) قائلاً: إن "الله تعالى أمر أهل الاجتهاد بالنظر فقال: ﴿فاعتبروا يا أولى الأبصار﴾، والاعتبار المأمور به عند الأصوليين هو القياس"(٣٢). أما الأشعرى (ت٣٢٤ هـ/٩٣٦م) فإن الاعتبار عنده يرد بالمعنى الأول حين يعلق على قوله تعالى ﴿وجوه يومئذ ناضرة* إلى ربها ناظرة﴾ قائلاً: "إما أن يكون الله عز وجل عنى نظر الاعتبار كقوله تعالى ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾"(٣٣). ومع أننا لا نجد منحى محددا لدى هؤلاء ينحونه فى معنى العبرة والموعظة، فإن واقع مكتوباتهم لا يخرج بهما

عن نطاق المعانى التى يوردها ابن عربى، إن لم تكن قد اقتصرت على أولها[٣٤]، مع تأخر ظهور انحصار النظر الاعتبارى فى الحوادث عند النابغة القلاوى (ت١٢٤٥ هـ/١٨٢٩م) واقتصاره على الجزء دون الكل، وانتقائه لموضوعاته[٣٥].

وإذن فإنه إذا كانت العبرة والاعتبار هما عنوان القصد والهدف، ولا تأمل إلا للاعتبار والعبرة – وبأى معنى كانا – فإن التأمل لا يبدو قاصرا فحسب، بل غائبا أصلا، حين لا نجد فى بناء مقدمات تلك المؤلفات التاريخية مطمحا تأمليا تعليليا كليا لذاك التاريخ. يصرح آحاد منهم بقراءة تاريخ ابن خلدون (ت٨٠٨ هـ/١٤٠٦م)[٣٦]، لكنها قراءة لم تتجاوز إطار التقليد، والمقدمات التى لفتت النظر إلى حد ما عند بعض الآحاد[٣٧] كانت ضئيلة فى حجمها، وبعيدة فى قصدها وأسلوب تناولها عن ذلك، بل إنها لم تلفت نظر من لفتته إلا مقارنة بمثيلاتها[٣٨].

٣ – أنواع التعليل :

ليس من المفارقة ألا نجد تعليلا للغزوات والحروب فى أغلبها لكونها تكاد تكون شأنا يوميا، من ثم فهى ليست وليدة ظروف اعتراضية؛ لذلك فإن مألوفيتها جعلتها لا تحتاج إلى تعليل، وإضافة إلى ذلك يجب ألا يغيب عن بالنا أن كل التفسيرات تقع على هامش الإدارة الربانية. ومع أن كثيراً من الأحداث ينقل بعدم انتباه، مع ما يتضمنه أحيانا من مغريات الانتباه، فإن هناك إشارات لافتة[٣٩]، كما أن هناك تعليلات جغرافية[٤٠] واقتصادية بيئية[٤١] ونفسية[٤٢]، غير أننا ركزنا على ما نراه أكثر كثافة وامتدادا.

٣–١– التعليل بالكرامة :

لكونهم يرفعون حدود كرامة الولى إلى مستوى معجزة النبى (كل ما كان معجزة لنبى جاز أن يكون كرامة لولى)، فإن أى حدث له علاقة من

قريب أو من بعيد يولى هو بشكل أو بآخر مصاغ ضمن كراماته؛ يقول جدو: "وفيه [عام ١١٨٠ هـ] توفى القاضى سنبير طالبن بن القاضى سيد أحمد إبن أكاد الأروانى، ومعنى سنبير بالسودانية الكبير. وأوصى عند وفاته ألا يدفن فى المسجد ولا يشهر قبره. من كراماته توفى فى الليلة الأخيرة من رمضان، وكان الضوء الكثير البين الظاهر حتى فرغوا من تجهيزه فعادت الظلمة كما كانت والله أعلم"(٤٣) وعلى المنوال نفسه نقرأ لابن أنبوجة فى حوادث (١٠٨٤ هـ): "وفى الرابع والثمانين وقعت شربية بين الزوايا والمغافرة، وقتل فيها كثير من الصالحين، ومنهم ناصر الدين، وغسل جماعة منهم على نوره ليلا وهو بعلب القضية"(٤٤)، "وفى الحادى والمائة [١١٠١هـ] قتل الشريف محمد السنى، قتله صنابة، فلما قتل وجاء الخريف طلع المزن وأمطر بالصواعق"(٤٥)، "وفيه [عام ١٢٣٩ هـ] توفى أحمد سالم إبن الإمام أبن الحسن بفاس وقبر به، وقبره الآن بوادان يزار، هكذا حدثنى من أثق به"(٤٦)، ونقرأ عن الطالب مختار القلقمى: "سبب ذلك؛ أى خروجه، أن أعمر بن أمحمد تنازع مع أبناء حسان على ملك البلاد فتنافسوا عليه، وتكلم إليه بعض الأولياء وقال له: إن بلادك لا تستقيم دولتها إلا على شريف صحيح النسب، فصار أعمر يطلب شريفا صحيحا نسبه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم"(٤٧) والقلاقمة "هم الذين استقامت دولة مشظوف [بهم] وكانوا يأخذون الزكاة منهم، ويأخذون أيضا زكاة أهل أمحمد شين"(٤٨).

هذه الأمثلة تجلى أمامنا حضور الكرامة على أصعدة عدة، من تجهيز الأموات إلى استقامة الدولة. فالضوء فى الليالى المظلمة لا يعزى إلى كثرة النجوم أو صحو السماء، والمزن ما كان لها أن تمطر بالصواعق فى فصل الخريف إلا لأن صنابة قتل الشريف محمد السنى، كما هى الحال فى انتقال رفاة ميت من مكان بعيد إلى آخر بدون جهد لذلك، أو استقامة دولة لا بفعل

وجهد أصحابها القائمين عليها، وإنما بفضل آخرين لا يبذلون جهدا مدركا لذلك.

إن رد الأحداث، مهما اختلفت وتنوعت، إلى عوامل بشرية لا طبيعية أو اقتصادية أمر يعلى دور الإنسان ويؤكد سيادته وفعله فى الأشياء، لو كان ذلك فى حدود قدرته وإرادته، وبوسائل واضحة. أما وقد تم إيلاء أهمية كبرى للعامل البشرى وفق أمور غيبية، فإن هذا الإيلاء حين يسند إحداث حدث أو إلغاءه إلى من ليس فى إمكان الأقدر منه موضوعيا التأثير فيه، من شأنه أن المؤكدة دور الوسيلة لا دور الإنسان، وأن يحصر احتمالات الفعل المؤكدة فى الوسيلة الغيبية دون غيرها من الوسائل الأخرى. "هكذا يغاص فى الكرامات لمسافات بعيدة"(٤٩).

٣-٢ التعليل بالعادة:

غالبا ما ترَدّ الأحداث التى ترجع فى أسبابها الأصلية إلى أمور تتعلق بالعادة، بصورة مختصرة، فيهمل -تبعا لذلك- ذكر العادة التى كانت وراءها، وفى أحيان قليلة تأتى فى معرض الحديث فتذكر. يقول جدو: "وفيها [١٢٢١ هـ] مات منزْ ابن رئيس السودان، وفيه ورث ابنه دَاغ السلطنة من غير قتال عليها، وذلك من مخالفة العادة".(٥٠) ما الذى جعله ينتبه إلى خرق تواتر العادة؟ وما الذى يعنيه بها؟ هل هى عادة توريث الملك من الأب لابنه، أم عادة وراثة الملك من غير قتال عليه؟ ولِمَ نسب الرئاسة لأبى "منز" ولم ينسبها إلى منز نفسه أو إلى ابنه "داع"؟

من شأن تعرُّف "داغ" أن يلغى بعض تلك الاحتمالات، فجده ولَدْ (١١٨٢ هـ/١٧٦٨م - ١٢٠٤هـ/١٧٨٩م) أحد ملوك مملكة سيكو البمبارية، وقد ازدهرت فى عهده، وكان قد دخل فى صراع على السلطة دام سنتين، أما منز

(١٢٠٤هـ/١٧٨٩م - ١٢٢١هـ/١٨٠٦م) بن ولَه، فقد تولى السلطنة بعد وفاة أبيه، وأطلق اسمه على المملكة فصارت "منز السلطنة"، وبعد عام من توليه وقعت الحرب بينه وبين إخوته على السلطة استمرت ثلاث سنين، ولم تنته إلا بقتل إخوته. أما داغ (١٢٢١هـ/١٨٠٦م-١٢٤٢هـ/١٨٢٧م) فقد كانت فترته فترة انحطاط، حيث كان يدفع الغرامة لإمارة أولاد أمبارك(٥١). يتضح إذن أن المعنىّ بالعادة هنا عادة الصراع الدائم على وراثة السلطة، سواء فى تلك السلطنة أو فى سلطنة أولاد أمبارك أو غيرها من "السلطنات" و"الإمارات" آنذاك، وهذا ما يبرر استغرابه من مخالفة قاعدة الصراع على السلطة التى سرت عادة فى تلك الأقاليم. أما ما يفسر إسناد الرئاسة إلى جد "داع"، فلعله يعود إلى كونه المؤسس لاحتفاظ السلالة بالسلطنة.

وفى المضمار العسكرى يقول صالح بن عبد الوهاب: "ومن قبائل أولاد زيد الجامات، وفيهم رئاستهم قديما وحديثا؛ منهم هرْتُومْ رئيسهم فى زمن كَسَارِى بين المغافرة وأولاد بوفايدة، وهو دليل أولاد أمبارك وأزناقة وأولاد الناصر إلى كَسَارِى الموضع الذى به أولاد بوفايدة".(٥٢) هكذا يأتى الانضمام إلى أحد الأطراف المتحاربة نتيجة للعداوة المستترة التى تكرست بوصفها عادة أصبحت تحكم العلاقة بين الطرفين، وهذا المثال يجعل عادة الاحتفاظ بالضغائن والعدوات تفسر جل التحالفات والتآزرات بين القبائل. تلك العادة التى هى عادة عربية قديمة، لا تكاد تسلم منها قبيلة؛ إذ لكل قبيلة أعداؤها التقليديون بالعادة، بل لكل فخذ أو أسرة داخل القبيلة منافسون وأعداء بالعادة، يعزى إليهم على الفور أى خطر أو تآمر أو أذى مجهول المصدر، ولا يمال إلى آرائهم عادة داخل القبيلة، ولا يقع التحالف إلا مع خصومهم(٥٣).

٣-٣ التعليل بالواقع:

يمكن القول - إن اقتصرنا على ظاهر الألفاظ - إن مراعاة الواقع والتوافق معه يرشدان بعض هؤلاء إلى تعليل أقرب إلى الموضوعية وأكثر بعدا عن الذات، غير أنه عند التمعن يتأكد "مدى ارتباط تعليلات المؤرخين بأغراضهم".(٥٤) يقول محمد اليدالي معللا هزيمة الزوايا في شربيه: "وتفرقت الطلبة في البلاد بعد فتحهم لطلب المعيشة، وغلب المغافرة لهم بقضاء الله وقدره، ولكن كل شيء له سبب. ومن سبب غلبتهم لهم أن المغافرة أدرى منهم بالمحاربة وخدمة الشر والكيد والتدبير، وعندهم من المكر ما لا تطيقه الطلبة؛ لأنهم نشأوا في الحرب وتدربوا عليها، والطلبة خانهم سوء التدبير واختلال السياسة وعدم التدريب على كيد الحرب ومكرها، ولكنهم أشجع من المغافرة وأجرأ منهم على ورود غمرات الموت واصطلاء نيران الحرب؛ لأنهم يريدون الشهادة ولا يخافون الموت"(٥٥).

فالمغافرة حققوا الغلبة لدرايتهم بالمحاربة وخدمة الشر والكيد والتدبير. هذه الأوصاف تأتت لهم من التدريب على الحرب التي نشأوا وشبوا عليها. هكذا ترجع كل الخصال إلى التنشئة الاجتماعية التي أكسبتهم تلك المهارات، في حين مُنى الزوايا بالهزيمة لسوء التدبير واختلال السياسة، وعدم التدريب على كيد الحرب ومكرها، وإن كانوا أشجع من المغافرة وأجرأ على ورود غمرات الموت، فإن ذلك لا يرجع إلى صفات متأصلة فيهم، بل يرجع إلى كونهم يريدون الشهادة. إذن فإن طلب الشهادة أكسب الزوايا خصالا توازي تلك التي يتوافر عليها المغافرة، إن لم تكن هي ذاتها (التنشئة الحربية = الشجاعة، التدريب = الجرأة)، فالتكافؤ قائم من حيث المبدأ، لكن الشجاعة والجرأة لا توازيان التنشئة والتدريب الحربي، ومن هنا اختلاف الترتيبات والإجراءات الميدانية من التدبير والمكر والكيد وخدمة الشر، في مواجهة سوء

التدبير واختلال السياسة وانعدام التدريب والمكر. هذا الاتجاه الواقعى يؤمّن تفسيراً مستساغا ومقبولا للهزيمة، وهذا ما يريده اليدالى – المنظّر والواضع للشيم – لكن التفسير يتخذ وجهة أخرى إذا ما شككنا، وفق ما لدينا من معطيات – واليدالى يعى ذلك – فى إرادة الوزايا نيل الشهادة، لكن اليدالى لا يريد ذلك.

ننتقل من الإطار السياسى والعسكرى إلى الفكرى، لنقف على تعليل من نوع آخر. يقول محمد عبد الله بن البخارى (ت١٣١٦هـ/١٨٩٩م): "وقلّ مصر مر به لمُجيْدِرى إلا سلم له أهله وأعجبهم من ولى وعالم، وعندى أن ذلك سببه كثرة الأئمة الذين فى موضع واحد وكلهم على مذهب ولا ينكر بعضهم على بعض، فلما رجع إلى بلادنا التى هى بلاده، وهى المسماة عندنا بتيرس والقبلة ولم تعرف المدن الكبار بالقصر المسمى بشنقيط، وصار يقول بما قدمنا ذكره من إحياء سنته (صلى الله عليه وسلم)، تعاوره علماء أهلنا"(٥٦). لنتغاض عن التسليم والإعجاب، لا تشككا وإنما تجاوزا إلى عنديات ابن البخارى؛ فوجود المدن الكبيرة، وازدحامها بالأئمة مع اختلاف آرائهم ومذاهبهم، بدون أن يطعن أى منهم فى الآخر، هو ما يبرّرُ التسليم للمجيدرى والإعجاب به ولياً وعالماً، وعلى خلاف ذلك فإن وجود صقع منعزل خال من المدن الكبيرة قليل علماؤه، لم يعتَد تنوع الأفكار والمذاهب، هو ما دفع بهؤلاء إلى تعاور لمجيدرى علماء وجهالا. البيئة الحضرية المزدحمة بالأفكار والمذاهب والبيئة البدوية المنعزلة هما ما كانتا وراء إنكار هؤلاء علماء وجهالا لأى مذهب غير مألوف، وتسليم أولئك بالعلم والولاية. هذا ما تنطق به عنديات محمد عبد الله بن البخارى. لكن أليس فى اللجوء إلى اختلاف البيئات سببا للإنكار على لمجيدرى وتبديعه صرفا للنظر عن محتوى

دعوته السنية، أو محتوى دعوة المنكرين عليه؟ ما معنى التماس تفسير لأمور فكرية وعقدية خارج إطارها؟ ألا يعنى ذلك شيئا بالنسبة للمفسّر والدعوة معا؟

نعود مرة أخرى إلى الوضع السياسى والعسكرى مع بابه بن الشيخ سيديا (ت ١٣٤٢ هـ/١٩٢٤م) حيث يقول: "وأما مزيد شوكة أهل الساحل من أهل أرقيبات وأولاد بسباع وغيرهم فى هذه الأرض أعوام دخول الفرنسيس، فهو أيضا أمر عارض غير أمر المملكة، وكان من أسبابه وقوع الورور (المدافع المعروفة ونحوها) بأيديهم قبل سائر أهل هذه الأرض من البيضان، مع اشتغال عرب الأرض عنهم بأمر الفرنسيس وغيره من فساد ذات بينهم"(٥٧)، وهو لا يتعلق بأمر "المملكة"، بل هو أمر عارض، مع الإقرار لهؤلاء بشوكة. وإذا ما تساءلنا عن المستويات التى تتفاوت فيها الشوكة لدى هذه القبائل لنميز أكثر بين العارض وغيره، فكيف تكون الإجابة وفق تلك المعطيات؟ وهل كان أمر المملكة شيئا آخر غير انتهاز فرص؟ وما العلاقة بين مزيد الشوكة وأمر المملكة؟

داخل "أمر المملكة" وشئون الملوك، يقول محمد فال بن بابه (ت١٣٤٩ هـ/١٩٣٠م) متحدثا عن صولة محمد لحبيب (ت١٢٧٧هـ/١٨٦٠م) على آدرار سنة ١٢٦٦هـ /١٨٥٠م: "ومع محمد لحبيب فى صولته هذه أخو أحمد بن عيده محارباً لأخيه، فدل محمد لحبيب على طرق آدار حتى دخله من الجانب الجوفى من غير علمهم، وأتى أطار فحرق نخل ابن عيده فى أمدير، وأتى كنوال (وهو موضع إقامة ابن عيده) زمن جذاذ النخل، ولم تقع بينهما وقعة عظيمة لتحصن أولاد يحى بن عثمان بالجبال، وقد تقع سرايا قليلة، ورجع محمد لحبيب ولم يفعل فعل الملوك الذين إذا أجلوا أميراً ملكوا محله لضعف ملوك البوادى"(٥٨)، فالمانع من الجريان على عادة الملوك وإجلاء الأمير الذى ملك محله، هو ضعف ملوك البوادى، لكننا لم نعرف طبيعة هذا

الضعف، وفى أى جانب يكمن؟ ولِمَ يعزى الضعف لملوك البوادى دون غيرهم؟ إن من شأن إضافة الملوك إلى البوادى أن تفسر جوانب من ذلك الضعف بدون، أن ترفع اللبس عن مكمنه الحقيقى.

ويعلل الشيخ بوى أحمد بن الشريف بن محمد بن بوعسريه (ولد ١٢٩٩هـ/١٨٨١م) توقف "التدوين التاريخى" فى تيشيت فيقول: "وهنا (١٣٢٦هـ) انتهى تاريخ أهل تيشيت، فلم يؤرخ أحد منهم بعد هذا؛ لانقراض أهل الهمم، وعدم قرار الموجود منهم فى البلد لضيقه عليهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم."(٥٩) فتوقف "التدوين التاريخى" يرجع إلى سببين؛ أولهما انقراض أهل الهمم، والسبب الآخر عدم قرار الموجود منهم فى البلد، وهذا الأخير يرجع إلى ضيق القصر عليهم. وتبدو مسئولية الاقتصاد واضحة فى توقف الرصد التاريخى الذى جعل القصر يضيق بأهله، ويدفع بهم إلى النزوح عنه، لكن ألذلك علاقة بانقراض أهل الهمم؟

٣-٤ التعليل بالدين :

يجمع الفقهاء الإخباريون على جعل الدين سببا علّيا لجميع الأحداث، إما باتباعه وإما بعدم اتباعه، لكنهم لا يفصحون عن ذلك؛ إذ لم نقف على تحديد فى هذا الشأن أصرح مما أورده بابه بن الشيخ سيديا، حيث يقول معللا حروب الزوايا: "والسبب فى الحروب الواقعة بين الزوايا قديما وحديثا سيبة البلاد، وعدم اعتناء من فيها من أهل الشوكة وغيرهم باتباع القرآن المجيد"(٦٠). وعلى الرغم من اقتصاره فى البحث عن الأسباب على حروب الزوايا ومحاذرته المس بهم، فإن منطوق تعليله هذا وفحواه يشمل حروب المجال الشنقيطى كلها، قديما وحديثا، بغض النظر عما فيه من التلكؤ والحذر.

فحروب فئة المحاربين لا تحتاج عنده إلى البحث عن أسباب لشيوع الغارات فيما بينها وعمليات التغاصب والتناهب، لكونها فئة فى عمومها لا تلتزم باتباع القرآن المجيد، حسبما يورده بابه وغيره عنها من أوصاف. وعليه فلا جدوى من تتبع الأسباب؛ لأيلولتها كلها إلى ذاك السبب، أما الزوايا المعتنون باتباع القرآن المجيد – بحسب أوصافه وأوصاف غيره من الفقهاء الإخباريين – فإن حروبهم وحدها تحتاج إلى تعليل أو على الأقل يمكن تعليلها، لكن بابه– لحذره وتحاشيه وصف الزوايا بأوصاف غير لائقة– لا يعمد مباشرة إلى تعليل أسباب حروبهم، وإنما يعللها بأسباب؛ أولها "السيبة" التى فتحت الباب أمام حروبهم، وثانيها عدم اعتناء أهل الشوكة فى البلاد باتباع القرآن المجيد، وهو مع ذلك لا يرغب فى التصريح بعدم اعتناء الزوايا باتباع القرآن، لكنه، وهو يدرك عدم اعتنائهم باتباع القرآن، لا يجد بداً من الإشارة إليهم بدون التصريح باسمهم، وإلا فإلى من ترجع لفظة "غير" إن لم ترجع إليهم؟

إن التعليل هنا لا يرجع إلى أسباب متعددة، وإنما إلى سبب واحد هو الدين؛ إذ لو اتبع الجميع القرآن لما كانت هناك سيبة أصلا، حتى تكون سببا معدودا مع عدم اتباع القرآن المجيد، لترد إليهما كل الحروب الواقعة بين الزوايا قديما وحديثا.

٤ – خصائص التعليل

فضلا عما يظهر فى بعض الأحيان من المحدودية وعدم الاتساق، فإن مظاهر السطحية والمباشرة تبرز أحيانا أخرى فى بعض التعليلات. يقول ابن أطوير الجنة: "وهو(١١٥هـ) عام ادْرَاريعْ، سمّىَ بها لكثرتها فيه".[٦١] وبعد ذلك بعشر سنوات يقول فى "(١١٦٥ هـ) سنة الدهن بأمكْيِنة عند أهل وادان،

والمعنى أن الدهن كثر عند أهل وادان فى ذلك العام"[٦٢]. وتبدو مظاهر أخرى من المباشرة –على المستوى نفسه– لدى: جدو، يقول: و"فيه(١١٨٤هـ) قُتل ابْتَيْتْ بن محمد المختار بن عمر بن الأَدْ التارقى أمير تكدمت مغدورا. قتله القائد مَام بن عبد الرحيم الرامى الفاسى أصلا التنبكتى وطنا؛ أمر عبيده فأخذوه وقتلوه وربَطَ التوارق على تنبكت بسببه ربطا شديدا حتى جاعوا جوعا شديدا وسبيت أموال عظيمة لهم بسبب ذلك. أعوذ بالله الكريم من الغدر وما يئول إليه".[٦٣]، فالربط (الحصار) أتى من التوارق بسبب عملية الغدر أو القتل التى نفذت فى الأمير، لكن سبب القتل أو الغدر غير معروف. ويقول ابن انبوجه: "وفيه (١٢٣٩هـ) وقعة آدروم؛ بلد قريب من تجكجة على جهة الغرب، وهى بين أهل اسويد أحمد وكنته وأبناء الناصر مع أهل سيدى محمود وأهل محمد شين، وعنده تفرقت الأسامى؛ فأهل سيدى محمود ومن معهم يقال لهم اشتراتيت: سموا به لكثرتهم، وسمى اسويد أحمد ومن منعه أيكاك : لكثرة أكلهم له".[٦٤] فالسبب واضح فى كلتا التسميتين؛ لكن ما ليس واضحاً هو السبب فى تفرق الأسامى عند هذا الموقع وفى هذه الوقعة بالذات؟ لكننا نرى الخصائص العامة فى التعليل والألصق به تتمثل فى كونه جزئيا.

٤-١ جزئى :

يتضح من خلال المحاور السابقة جزئية التعليل واقتصاره على الحوادث المفردة،(٦٥) ومن ثم لا يطمح المؤرخ إلى تعليل التاريخ المعلوم لديه، أو تفسير ظواهر الأحداث ومساراتها من حوله، أو تفسير الواقعة بين يديه فى إطارها الكلى. وهو عند تعرضه لتعليل حدث مفرد لا يبحث عن القواسم المشتركة بينه وبين بقية الأحداث؛ لا المتصلة به ولا المتشابهة معه، وإنما يدونه لاحتلاله موقعا فى النفس أو تركه تأثيراً يمت للكاتب بصلة، وكما أن نقطة واحدة من الزمن، كنقطة واحدة من المكان، لا تدل على شئ؛ فإن تعليل

حدث واحد ضمن مجموعة أحداث فى متسع زمنى، حتى ولو استوفيت نواحيه جميعها، تعليل لا يدل على شئ بالنسبة إلى ما ينتظمه.

٤-٢ اختزالى :

لا نعنى بالاختزالية هنا ضم الأحداث بعضها إلى بعض لتعليلها إجمالا، بل نعنى الإفراط الشديد فى الاختصار، والاقتصار الحاد فى الألفاظ إلى الدرجة التى لا تتجاوز الإشارة الغامضة أحيانا،[٦٦] أما التعليلات الأكثر جلاء فإنها لا تتجاوز الجملتين أو الثلاث، كما يظهر فى المحاور السابقة. يأتى هذا من جهة نتيجة الاختصار، بوصفة سمة من سمات "الكتابة التاريخية"، ومن جهة أخرى نتيجة عدم استخدام مقولات نظرية أو صياغة التعليل ضمن قوالب نظرية تستدعى بسطا أكثر إن فاض المعنى عن العبارة ودفع إلى اختراق الاختصار.

٤-٣ متفرق:

لكونه لم يستخدم قوالب نظرية، ولم يتعرض للمسائل فى إطار كلىّ، فإن جزئيته جعلته يصاغ بشكل متفرق، سواء من حيث الشكل؛ إذ يُقحَم فى السرد السريع بين الأحداث، أو من حيث المضمون؛ إذ تعلل كل حادثة –إن حالفها الحظ– فى سياق السرد السريع المتنوع بدون أن يلتفت إلى سوابقها أو لواحقها فى المضمار نفسه. وعلى سبيل المثال فإن الشيخ محمد اليدالى الذى يفسر هزيمة الزوايا فى شربيه، لا يجد من داع يدعوه إلى التعرض لأسباب هزيمة أولاد رزق أمام المغافرة، ولا لأسباب هزائم بعض هؤلاء أمام بعض. ومحمد فال بن بابه العلوى –فى تعليله السابق– لا يتعرض لأسباب الهزيمة، وإنما لأسباب عدم ملك محل الإمارة، وفى علمه أن الهزائم دورية بين الأمراء أو "الملوك" ولانظنه يعشو عن ذلك، لكنه يتغافل عنه، لاعتبارات هى عنده كما

عند غيره لا تخرج -حسب ظننا- عن إطار الذات، لذا كان محمد لحبيب يوصف "بالملك" وأحمد بن عيده "بالأمير"، والزوايا عند محمد اليدالى لا يراد بها حيث تطلق إلا "تشمشه" فلا يراد بها "تندغه" ولا "مدلش" ولا غيرهما.(٦٧)

٥ – نظن أن المحاور السابقة أجابت على التوالى عن الأسئلة الواردة فى البداية، ولم يبق منها إلا أخيرها : هل لأشكال التدوين التاريخية من تأثير فى التاريخ وفى التعليل؟

نحسب أن هدف "التاريخ الحولى" أصلا تقريرى وليس تعليليا، والنمط "الحولى الاختصارى" ينتهج بهذه البلاد نظراً إلى الحاجة التعليمية إليه، لسهولة حفظه واقترابه من النظم، قبل أن تظهر الحوليات النظمية التى شاعت فيما بعد. وقد شكل استمرار ظاهرة النظم وتكرسها خطرا على الإنتاج المعرفى لا فى التاريخ وحده، بل فى أفرع متعددة لما تتطبع به من الاقتصار والاختصار والمباشرة، ولما يكتنفها من التحديد والاستبعاد. فالنمط الشنقيطى حولىّ بالدرجة الأولى، يحافظ أو يكاد يحافظ على تسميته المميزة، فيقولب الأحداث فى السنة (الحولية) ويفصل بعضها عن بعض، ليثبتها فى أحوالها فتنعدم الرؤية الكلية للأحداث، وهو لا يهتم غالبا لا بالأسباب ولا بالنتائج، فسمة الاختصار تجعله لا يخبر عن ثنايا الحدث نفسه الذى يسجله، إذ لا يتعدى من الناحية الإخبارية ظواهره، ويحرص على الالتزام الصارم بمفاصل الزمن وفقراته، واتخاذه مقياسا لتسطير الأحداث والتقيد البالغ بالاختصار، وهذا ما شوه كتابة الأحداث التاريخية وقطع أوصالها، فظهرت مفتتة كمفردات بلا روابط، وهو ما أعاق إمكان التطور فى الكتابة التاريخية؛ إذ من شأن الخروج عن النمط الحولى وكتابة التاريخ على نحو نسقى،(٦٨) إيجاد مفاصل للأحداث غير زمنية، حتى ولو لم تُتخذ من الأحداث فواصل لذاتها، ومن ثم يُفتَح الباب أمام احتمالات أوسع للتعليل.

فيما يخص التعليل، فإن غياب الرؤية الكاملة عند الإخباريين ظل سببا فى غياب التعليل للأحداث؛ فالإخبارى لا يتبنى مشروعا، ولا ينحاز غالبا إلى أحد الأطراف المتصارعة فى الواقع، ويظهر عجز الإخبارى عن خلق رؤية ذهنية، أو بالأصح ترسمها، فى الاهتمام بتدوين أخبار السلف؛ فى صورتها الكاملة ليصور كيف كان هؤلاء يعيشون، وإنما على النحو الذى يوازى ذكر الفاعلين سياسيا وحربيا مع الفقهاء؛ إذ لا يصمت الفقيه عن ذكر أخبارهم بالكامل، ولا يجد مبررا لتناولها وحدها بوصفها وقائع، فهو لا يراها جديرة بذلك؛ وهذا مما يفسر طغيان الهم الوفياتى على التسجيل الإخبارى الذى جعل اهتمام الإخبارى ينصب بالدرجة الأولى على الفقهاء المتوفين بدون ذكر ترجمة كاملة لهم، فامتلأت الحوليات بوفياتهم، لتمتزج الوقائع بالوفيات. صحيح أن هذا يشكل إلى حد ما رؤية معينة تكشف عن أحد أوجه الواقع؛ إذ لا تاريخ بدون رؤية، لكن هذه الرؤية لم تكن كاملة، بل هى أثر من آثار رؤية سياسية مهزومة بقيت مائلة لم تُلْغَ ولم ترمم، لتفعل أو لا تفعل فى الواقع، فهى إذن أشبه ما تكون بالضغائن(٦٩).

إن تحديد موقع من الأطراف الفاعلة راهنا فى الواقع، من خلال الانحياز لها بوساطة الدم، أو وحدة الفئة، أو بدافع المصلحة، أو من خلال مدى اقتراب أحدها من مشروع ذهنى يصبو "المؤرخ" إلى تحقيقه –لا يعنى هنا امتلاك رؤية، وإن كان فإنها رؤية فى اتجاه المستقبل، إنما الذى يعنى امتلاك رؤية بالنسبة إلينا وضرورتها لتغيير وجه "الكتابة التاريخية" هو كل هذه الشروط، لكن فى اتجاه الماضى أكثر منه فى اتجاه الحاضر والمستقبل مهما دقت الفروقات فى ذلك، وإن كان الفقيه الإخبارى يحضر فى مستويات سياسية عدة (سياسة القبيلة، سياسة الفئة، سياسة الدين) وتتداخل فى ذهنه حين يدون. وإذا كان ابن خلدون قد عاب التشيع والانحياز على المؤرخين، فإننا

نراه هنا ذا جدوى؛ إذ من شأنه أن يُفعّل الكتابة التاريخية، ويتسبب فى تعقبات وخصومات تؤدى فى النهاية إلى ظهور موقف موضوعى على جانبها يدفعها ويلغيها بالتدريج.

إن الخروج على النمط الحولى[٧٠] وتحديد موقف من الواقع التاريخى وأطرافه، يتشكلان ضمن رؤية، ولا نقصد الواقع التاريخى الراهن للمؤرخ، ووجود سياسة قانعة أو مشروع ذهنى حى (الجهاد، إعادة الإسلام إلى سابق عهده، الإصلاح، تأسيس دولة، رفع الظلم ...) يوصفها عوامل تاريخية مساعدة، فحسب؛ فكل هذه من شأنها أن تدفع "الكتابة التاريخية" إلى التغيير، وأن تستدعى التعليل لحضور أكثر، فهل يمكن أن نقول – انطلاقا مما سبق – إن النمط الحولى الاختصارى للكتابة التاريخية" هو المسئول بالدرجة الأولى عن غياب التطوير والتعليل ؟

الهوامش

١- " وكنت أتعجب من علماء هذه البلاد (...) كيف لم يعتنوا بتاريخها فى كتاب معتبر من أول الزمان إلى الآن، مع كثرة ما وقع فيها من أمور الكبار التى ينبغى الاعتناء بكتابتها وكثرة من كان بها من الأكابر من كل صنف، الذين لا ينبغى أن نترك أخبارهم نسيا منسيا"، بابه بن الشيخ سيديا : إمارتى أدوعيش ومشظوف، تحقيق وتعليق : مصطفى حبيب الرحمن، المدرسة العليا للأستاذة، ١٩٨٢ ص ص١-٢ .

٢- يقول محمد اليدالى فى مقدمة أمر الولى ناصر الدين : " أما بعد، فهذه نبذة طلب منى بعض الأصحاب أن اضعها "، الشيخ محمد اليدالى : نصوص من التاريخ الموريتانى، تحقيق : محمد بن باباه، بيت الحكمة، وقرطاج ١٩٩٠، ص١١٨. ويقول جدو بن الطالب الصغير البرتلى : "وسبب هذا التأليف كنت يوما أتحدث مع بعض الإخوان فى أخبار الزمان حتى طلب منى بعضهم أن أؤلف له تأليفا تجمع له فيه ما وقع فى زماننا ..."تاريخ جدو، تحقيق وتعليق : محمد المختار ابن زينى، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط،٩٣-١٩٩٤، ص٣٤ . ويقول صالح بن عبد الوهاب : " هذه نبذة من وفيات الأعيان وتاريخ أعلام هذا الزمان، تدبنى إلى جمعها السيد الذى فضله لا يعد ولا يستقصى ولا يحد الطالب بن سيدى أبى بكر بن الطالب نختار القلاوى، صالح بن عبد الوهاب : نبذة من وفيات الأعيان وتاريخ أعلام هذا الزمان، إعداد : الطالب الجيلانى بن العربى، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط، ٩٥ -١٩٩٦، ص ٢٦، وكذا فى مقدمة الحسوة البيسانية فى

علم الأنساب الحسانية، تحقيق وتحليل : أحمد محفوظ، المدرسة العليا للأستاذة ٨٣ –١٩٨٤، ص ٢٤ .

٣- لكونها ثقافة صحراوية، يأتى التأليف فيها غالبا إما نتيجة لحفظ وإما إعداداً لحفظ، ومن هنا يبرز التركيز الفائق والانتقاء الأشد .

٤- معوقات التأليف زيادة على الوسائل (خصوصا الورق) هناك محاربة التأليف أصلا، يقول محمد عبد الله بن البخارى : "وحدثنى من أثق به أن سيدى عبد الله بن الفاضل قال : إن البدوى يؤدب : إذا ألف تأليفه المشهور فى الأنساب الذى انتفع به الناس"، كتاب العمران، تحقيق : مريم بنت آده، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط ١٩٩٤ – ١٩٩٥، ص٧٠ . هذا مع وضع الرقابة عليه وقلة المراجع وانحصارها فى كتب معينة تواطأت عليها الأعراف الثقافية، وتتضاف إلى التأليف التاريخى صعوبات من قبل قلة المصادر أو انعدامها، ومحدودية الاحتفاء به، وحساسيته الشديدة الآتية أحيانا من ارتباطه عندهم بالأنساب .

٥- تمثلت تلك الطبيعة فى اتخاذه صورة حدث (حرب، كارثة طبيعية....) أو وفاة وولادة، واعتماده على التناقل الشفوى الذى يفتقر إلى التفاصيل أو يهمله كلما ابتعد عن الحدث المذكور .

٦- انظر عام ١٠١٨هـ وقعة الوحلة، وعام١٠٢٧ هـ سنة البنود فى تاريخ جدو، مرجع سابق .

٧- انظر عام ١١٦٥هـ سنة ادهن بامكيبنة عند أهل وادان فى تاريخ ابن أطوير الجنة، تحقيق : سيدى أحمد بن أحمد سالم، معهد الدراسات الأفريقية، الرباط، سلسلة نصوص ووثائق (٤)، ١٩٩٥، وعام١٢١٠هـ عام البوص عند أهل تكانت، وعام لماضيض عند الأغلال، فى ابن

أنبوجة، فتح الرب الغفور فى تواريخ الدهور، تحقيق: محمد الأمين بن سيدى المختار، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط ٩٤-١٩٩٥ .

٨- قد تذكر حوادث قليلة جداً فيما قبل الألف بالتقويم الهجرى، والانقطاعات متواترة عند أغلبهم من العقد إلى السنة، وقد يذكر بعضهم نتفا من أحداث الدولة المرابطية لداع أو اقتضاء ما، لكنه لا يتحدث عن القرون اللاحقة لقرنها كاللمتونى مثلا وابن حبت.

٩- بدأ الأول كتابة تاريخه سنة ١٢٥٥هـ، وانتهى الآخر من تاريخه سنة ١٢٦٦هـ .

١٠- قد لا يستغرب ذلك من صالح الذى يصرح فى بداية كتابه النبذة بأنه ألفه تحت الطلب، أما ابن أنبوجة الذى لم يأت تأليفه بداع من طلب، وتُظهر مقدمته مدى اطلاعه، فإن ذلك يستغرب منه .

١١- ما نعثر عليه أحياناً من ذكر وفاة، أو تولى ملك مغربى أو سودانى لا يخرج عن إطار السماع، بوصف ذلك أثراً من آثار التواصل، والتواصل التجارى بخاصة على اختلاف المنطقتين؛ إذ كانت الصلة بملوك السودان أكثر حضوراً وتنوعاً، وقد علل البرتلى إهمال المؤلفين أهل التكرور ببعد المسافة، وهو نفسه تعلل ببعد الشقة فى عدم الإحاطة بمن رام الترجمة لهم. راجع : فتح الشكور، تخريج : محمد إبراهيم الكتانى ومحمد حجى، دار الغرب الإسلامى، بيروت، ١٩٨٩، ص٢٥ .

١٢- راجع الفشتاليات الشنقيطية، تحقيق: مريم بنت حمادى، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشط ٩٣-١٩٩٤ .

١٣- كمنظومة والد بن خالنا، تحقيق: محمد بن الطالب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط ٩١-١٩٩٢، ومنظومة ابن أحجاب، تحقيق: خديجة بنت الحسن قرطاج، ٩١ -١٩٩٢هـ، ومنظومة محمد أمبارك اللمتونى (مخطوط).

١٤- المرجع السابق، ص ٤٤ .

١٥- المرجع السابق، ص ٦٠ .

١٦- المرجع السابق، ص ٤٦ .

١٧- المرجع السابق، ص ٤٧ .

١٨- ابن رشد : فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، تحقيق: ألبير نصرى نادر، دار الشرق، بيروت، ط٢ (د.ت)، ص ٦٥.

١٩- الجابرى: نحن والتراث، المركز الثقافى العربى، بيروت، ط٤، ١٩٩٣، ص ٢٧٤.

٢٠- محمود كامل أحمد: مفهوم العدل فى تفاسير المعتزلة للقرآن، مكتبة الشباب، القاهرة ١٩٨٠، ص ٦٩، وهو ينقل عن الإيثار وأربعين الرازى.

٢١- سيزا قاسم: توالد النصوص وإشباع الدلالة، تطبيقاً على القرآن الكريم، مجلة ألف، ع ٨، ربيع ١٩٨٨، ص ص ٣١-٨١، ص ١٧٨.

- شربية: حرب دارت بين قبائل زاوية، تشتغل بالعلم والتجارة، وأخرى حسانية، تشتغل بالحروب فى الربع الأخير من القرن الحادى عشر الهجرى فى الجنوب الغربى الموريتانى.

٢٢ – محمد اليدالى: "شيم الزوايا"، ضمن نصوص من التاريخ الموريتانى، تحقيق: محمذن بن باباه، بيت الحكمة، قرطاج، ١٩٩٩، ص ص ١٧٧-١٧٨.

٢٣ – جدو بن الطالب الصغير البرتلى الولاتى، مرجع سابق، ص ٥٢.

٢٤ – تناولنا تأثير العقيدة الأشعرية والفقه المالكى والطرق الصوفية بشكل أكثر تفصيلاً فى مقالنا: "التاريخ الشنقيطى ضمن سياقاته"، منشور فى حوليات الجامعة الإسلامية بالنيجر، عدد ٩، سنة ٢٠٠٣-٢٠٠٤.

٢٥ – هناك أهداف عامة يأتى التأليف التاريخى لتحقيقها ؛ منها: العقدية (التفكر، الاعتبار)، ومنها الفقهيه (البلوغ، الموت، إثبات ملكية...).

٢٦ – مرجع سابق، ص ٣٤.

٢٧ – حوليات النعمة، تحقيق: محمد بن أعلى فال، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط ٩٧-١٩٩٨، ص ٨، وتقتصر حوليات ولاته على تحصيل لوازم الحكم الشرعى فى "تذكر كل من ولد عند حادثته بما مضى من عمره من المؤمنين، ليعلم وقت وجوب العبادة لرب العالمين"، تحقيق: سيدى عبد الله بن البخارى، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط، ٩١-١٩٩٢، ص ص ١٧-١٨. وتستجمع حوليات تيشيت مقاصد أكثر من خلال تبنيها مقولة الصفدى: "قد يفيد التاريخ موعظة وعلماً وهمة تذهب هَمًّا، وبياناً يزيل وَهْما، وحزما وعزما ﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نُثَبِّتُ به فؤادك﴾" نقلا عن أحمد بابه، حوليات تيشيت، تحقيق: محمدو بن أمرابط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط، ١٩٩١-١٩٩٢، ص ٤٠. أما ابن أطوير الجنة فقد تبنى بيتى السيوطى.

وبعد فالتاريخ والأخبـــار فيه لعقـــل العاقل اختيـــــار

وفيه للمستبصر استبصار كيف أتى القوم وكيف ساروا

مرجع سابق، ص ٤٢. ويهتم ابن أنبوجة بالمقصد الذاتى: ليضمنى الله فى سلك من ألف فيه وليثيبنى كما أثابهم، مرجع سابق، ص ١٨، ويهمل الحديث عن القصد آخرون كمحمد البدالى، وابن أحجاب، ووالد إبن خالنا...

٢٨ – سيزا قاسم: مرجع سابق، الصفحة نفسها.

٢٩ – محيى الدين بن عربى: الفتوحات المكية، دار صادر، بيروت (د.ت) ج١، ص ٥٥٠.

٣٠ – المرجع السابق، ص ٣٦.

٣١ – ابن رشد: مرجع سابق، ص ٣٦.

٣٢ – واضح أن الاعتبار فى نطاق علوم الحديث غير معنى، ولنتذكر عنوان كتاب المقريزى "المواعظ والاعتبار" وكتاب ابن خلدون "العبر".

٣٣ – سيدى عبد الله بن الحاج إبراهيم، طرد الضوال والهمل عن الكروع فى حياض مسائل العمل، نشر الخضرامى ولد خطرى، نواكشوط، ط١، ١٩٨٥، ص ٦.

٣٤ – الإمام أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى: الإبانة عن أصول الديانة، وضع حواشيه وعلق عليه عبد الله محمود محمد عمر، دار الكتب العلمية، بيروت ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ص٢١.

٣٥ – النابغة الغلاوى: نظم أم الطريد (مخطوط)، ص ١.

٣٦ – يصرح بذلك صالح بن عبد الوهاب فى الحسوة، وابن أنبوجة فى مقدمة فتح الرب الغفور فى تواريخ الدهور.

٣٧ – نقصد مقدمة ابن أنبوجة وإلى حد ما مقدمة حوليات تيشيت.

٣٨ – كما أنها كانت مفصولة عما بعدها تماما كمقدمة ابن خلدون.

٣٩ – مثلا : "وفى ذلك العام (١٢٤٢ هـ) مات المختار بن محمد شين وهنون بن يوسف وولد أعل الكورى التروزى وسيدى هيبه من أولاد أعلى وهم رجال العربان فى ذلك اليوم" ابن أنبوجة، مرجع سابق، ص ٧٧.

٤٠ – مثلا : "وفيها (١٢٥٠ هـ) أعلن أولاد لغويزى الحرب مع أبكاك وضاق أشراتيت وأولاد الناصر بالبحر فى جهة فوته، وغزوا جلف من السودان، فاستباحوا منهم قتلاً ونهباً"، صالح بن عبد الوهاب: النبذة، مرجع سابق، ص ٥٢. ومن بين الأحداث الحربية ما هو بشكل أو بآخر بدوافع اقتصادية.

٤١ – مثلا : "وفى السابع عشر ومائتين وألف أغار أولاد منصور على مواشى إدو على ولقلاقمة بأكرينات بأفطوط. هى سنة آبلاك على أهل آدرار"، ابن أطوير الجنة: مرجع سابق، ص ٨٧، مع أن أحداثا كثيرة يكمن خلفها البيئة والاقتصاد.

٤٢ – مثلا: "وفى الرابع والعشرين (١٢٤٢ هـ) وقعت وقعة كسارى على بنى بوفادة هجم عليهم أولاد أمبارك، وأصلها أن هنون لعبيدى قتل أولاد بوفايدة ابنة ديدى خطأ، وكانت أمه منهم، وذلك أنها أوصت العبد الحادى لهم بأن يخرج بالإبل فيقتل فصيل ناقة سمتها، ففعل، فلما كان بالليل خرج هنون لعبيدى فرأى الناقة تحن حنيناً فقال ما لها، فأخبر

بشأنها، فقالت زوجته هذه أحب إليها ولدها من ولدك [إليك] فقال أو تحبين أن أهجم على أهلك؟ فقالت وكيف لا، وقد قتلوا ابنى، فهجم عليهم فقتلهم قتلا وشتت شملهم. ابن أنبوجة: مرجع سابق، ص ص ٥٠-٥١.

٤٣ – جدو بن الطالب الصغير: مرجع سابق، ص ٨٢.

٤٤ – ابن أنبوجة، مرجع سابق، ص ٤٧. يبدو أن المسافة الزمنية والمكانية أثرت فى نقل الأحداث.

٤٥ – المرجع السابق، ص ٤٩.

٤٦ – المرجع السابق، ص ٧٥. وهى أيضاً فى تسجيلات جدو بن الطالب الصغير.

٤٧ – رسالة الروض فى أنساب أهل الحوض، المنسوبة إلى سيدى عبد الله بن الحاج إبراهيم، مخطوط المكتبة الوطنية رقم ٢٧٥٥، ص٣.

٤٨ – المرجع السابق نفسه، ص ٦، وفى حوليات تيشيت: "وفى هذا العام (١٢٨٥ هـ) توفى الشريف سيدى محمد الذى ملكه الله لأحمد محمود بن لمحيميد، وتملك به وقتله شريف آخر من أهل الغرب ..." مرجع سابق، ص ٧٧.

٤٩ – بذا ينتج ويكرس المجتمع الوسائل الغيبية، ويرد التأثير فى الواقع إليها وحدها، ومن ثم فالأجدى لمن يريد استقامة الدولة مثلاً أن يلجأ إلى شيخ أو شريف ليحتضنه ويعطيه الهدايا، بدل أن يلجأ إلى تحالفات وترتيبات وتدابير من شأنها ضمان ذلك.

٥٠ – جدو بن الطالب الصغير، مرجع سابق، ص ١٠١.

٥١ – انظر : المرجع السابق نفسه، ص ٨٨.

٥٢ – صالح بن عبد الوهاب: الحسوة البيسانية فى علم الأنساب الحسابية، مرجع سابق، ص ٥٥.

٥٣ – عادة الوراثة لا يجادل أحد فى انتشارها فى المجتمع، سواء فى العداوة أو الإمارة أو المشيخة، وقد سبق لمحمذن فال بن متالى أن فسر بها بعض أوجه الانحراف الدينى. انظر: فتح الحق (مخطوط)، ص ص ١–٢.

٥٤ – عبد الله العروى: ثقافتنا فى ضوء التاريخ، المركز الثقافى العربى، بيروت، ١٩٩٢م، ص ٢٧.

٥٥ – محمد البدالى، مرجع سابق، ص ص١٧٧–١٧٨.

٥٦ – محمد عبد الله ولد البخارى، مرجع سابق، ص ٧٠.

٥٧ – بابه بن الشيخ سيديا، مرجع سابق، ص ٣.

٥٨ – محمد فال بن بابه العلوى : التكملة، تحقيق : أحمد بن الحسن، بيت الحكمة، قرطاج، السلسلة التاريخية رقم (٣)، ١٩٩٠م، ص ٥٩.

٥٩ – حوليات تيشيت، مرجع سابق، ص ١٠٨.

٦٠ – بابه بن الشيخ سيديا، مرجع سابق، (النص المطبوع)، ص ٢٢٨.

٦١ – ابن أطوير الجنة، م، س، ص٦٢.

٦٢ – المرجع السابق، ص ٦٨.

٦٣ – جدو بن الطالب الصغير، مرجع سابق، ص ٨٣.

٦٤ – ابن انبوجة، مرجع سابق، ص ٧٤.

٦٥ – بتأمل أنواع التعليل يتضح أنه يشمل الحدث المفرد والجزئى والهامشى.

٦٦ – انظر الهامش(٣٩). ما الذى يريد الإشارة إليه بقوله: "وهو رجال العربان فى ذلك اليوم"؟ هل يريد الإشارة إلى شجاعتهم وتفردهم بين العرب آنذاك؟ أم يريد الإشارة إلى أن هذه السنة التى توفى فيها رجال العربان كانت سنة فصل بين مراحل؟ أم أن العربان بوفاة رجالهم فى ذلك اليوم تغيرت أحوالهم؟ يقول صالح: "تولى بعد آماش بن أعمر بن أعلى بن أعمر بن هنون بن بهدل أخوه أعلى، ثم أخوهما هنون، ثم أخوهم المختار المقتول يوم مد الله المتقدم ذكره، ولم يعهد مثل ذلك إلا فى أولاد عبد الله بن مروان الوليد (المتوفى ٩٦ هـ) وسليمان (المتوفى ٩٩هـ) ويزيد (المتوفى ١٠٥ هـ) وهشام (المتوفى ١٢٥ هـ) وفى أولاد المتوكل محمد العباس المصرى الخمسة : المستعين العباس (المتوفى ٨٣٣ هـ) والمعتضد داود (المتوفى ٨٤٥ هـ) والمستكفى سليمان (المتوفى ٨٥٥ هـ) والقائم حمزة (المتوفى ٨٦٢ هـ) والمستنجد يوسف (المتوفى ٨٨٤ هـ)، وفى أولاد عبد الحق المرينى المغربى عثمان (المتوفى ٦٣٨ هـ)، ومحمد (المتوفى ٦٤٢ هـ) وأبو بكر (المتوفى ٦٥٦ هـ) ويعقوب (المتوفى ٦٥٨ هـ)". المرجع السابق، ص ٩٠. إنه لا يفصح عن شىء أكثر من هذا الإيراد الممتد والمتدرج؛ فماذا يعنى؟ هل هذه المقارنة فى تسلسل السلط داخل الأسر من العراق إلى مصر إلى المغرب إلى شنقيط ترمى إلى المساواة بأى وجه من الوجوه؟ أم أنها تعبر وحسب عن تداول سلط متماثلة نوعاً ما من التماثل؟ أم أن الأمر يقتصر على التعبير عن تجذر السلطة واستقرارها فى آل هنون بن بهدل؟ ما معنى التدرج فى الأقاليم والأسر من المشرق فى اتجاه المغرب؟ ننبه إلى أن الإحالة فى هذا الهامش إلى "الحسوة"، لكن بتحقيق إزيد بيه بن محمد محمود وسيدى أحمد بن أحمد

سالم، المعهد الموريتانى للبحث العلمى، وهو الأقدم، ١٩٩٩، ص ١٩٩، وليس الذى بتحقيق أحمد بن محفوظ المنجز بالمدرسة العليا للأساتذة ٨٣-٨٤.

٦٧ – انظر : محمد اليدالى، مرجع سابق، ص ١٩٩.

٦٨ – نعلم أنه حدث شيء من ذلك لدى بابه وابن بابه العلوى، لكنه أتى متأخراً وتحت الطلب الخارجى. (انظر مقالنا : التاريخ الشنقيطى : التأسس والتوجه)، قيد النشر.

٦٩ – تظهر الضغائن واضحة فى لفظى "مات" و "توفى" اللتين يلصق كل منهما بأعلام فئة.

٧٠ – التاريخ بالأحداث (بمعنى التقويم أو التحقيب) أشير إليه مراراً عندهم، لكنه ظل فى إطاره الشعبى، ولم يكتب به التاريخ، ولم يتخذ أساسا لتسجيل الأحداث.

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUT DES RECHERCHES ET DES ETUDES ARABES
معهد الدراسات والبحوث العربية